التشكيلات الخطابية في الشعر الأموي
تناول تداولي لشعر النقائض

فريدة موساوي
المركز الجامعي بالبويرة –الجزائر –

أولا:في مفهوم أجناس الخطاب والتشكيلات الخطابية

تتميز المنظومة المصطلحية للتحليل التداولي للخطاب بالتنوع الذي يحاول الإحاطة بعالم الخطاب وآليات اشتغاله، غير أنه يمكن القول أن هذه المنظومة تركز بشكل فارق على عنصر السياق ولعل ذلك يتجلى أكثر في مفهومين أساسيين في تحليل الخطاب هما:

ـــ نوع الخطاب Genre de discours

ـــ التشكيلة الخطابية Formation discursive

وقد قامت التداولية أصلا على إعادة الاعتبار إلى دور السياق في العملية التواصلية بداية من الجذور الفلسفية التي بدأت مع الفيلسوف الأمريكي وليام سندرس بيرس W.S.Peirce الذي درس في نهاية القرن التاسع عشر اللغة العادية من منظور ما تنطوي عليه من علامات Signes ستحل محل ما يعرف في النحو التقليدي بالمعنى أو ما أصبح يُعرف في الدراسات اللغوية الحديثة بالدلالة غير أن مفهوم العلامة تجاوز تلك المفاهيم التقليدية للمضمون في

الخطاب لأنه خرج عن إطار اللغة أحيانا مثل بعض أنواع العلامات (الصورة أو الأيقونة، المؤشر، الخ) وهو ما أدى، بطريقة قد تكون غير مقصودة، إلى تأسيس علم لغـــوي جديـــد هـــو الـــسيميائية Sémiotique وكان بيرس في اكتشافه هذا متأثرا بالتحليل التداولي أو البراغماتي الذي كان التيار المنهجي الفلسفي الغالب في الولايات المتحدة الأمريكية في تلك الفترة، وهو منهج يركز علـــى تنـــاول الظواهر في إطارها التجريبي الواقعي، بمعـــنى دراســـتها في حالـــة حدوثها أو استعمالها في الواقع ومن هذا المنظور كـــان الـــسياق اللغوي يشكل بالنسبة لبيرس الجزء الأساسي في دراسة اللغة.

ثم توالت التداوليين بعد ذلك حيث أعيدت صياغة نظرية بيرس بشكل منهجي من قبل تلميذه شـــارل مـــوريس C.Morris في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين وقد توجـــت هـــذه الدراسات بنظرية أفعال الكلام التي أرسى قواعـــدها الفيلـــسوف الإنجليزي جون أستون J.Austin في الستينيات من القرن العشرين وقد ركز أستون على السياق على نحو غير مسبوق جعـــل مـــن الخطاب أو الكلام غير مفصول عنه خاصة في إطار نوع من أفعال الكلام تسمى الأفعال الإنشائية Actes illocutoires التي لا يكن تحديد مقاصدها ما لم نربطها بسلطة المـــتكلم في مقابـــل ســـلطة المتلقي، والإطار الزماني والمكاني للخطاب، وغير ذلك من العناصر الخارجية التي تتحكم، في الواقع، في فهم مقاصد الكلام.

ـــ في مفهوم نوع الخطاب

إن مفهوم نوع الخطاب يقترب نوعا ما من بعض المفاهيم والمصطلحات المتداولة في النقد الأدبي الكلاسيكي مثل الأنواع أو الأجناس الأدبية وينطوي هذا الأمر على وجود محاولات تصنيفية typologique للأدب شكلت موضوعا أساسيا في بعض ميادينه مثل نظرية الأدبغير أن هذا لا يعني وجود تطابق بين هذه المفاهيم النقدية وبعض المفاهيم التي استحدثها تحليل الخطاب، وإنما يتعلق الأمر بإعادة صياغة لتلك المفاهيم بما يتلاءم مع مفهوم الخطاب Discours الذي يختلف عن مفهوم الأدب أو النص الأدبيفالأجناس الأدبية لا تعدو أن تكون فرعا من شجرة متشعبة الأغصان في حقل تحليل الخطاب الذي ينظر لها في إطار مؤسسة الأدب حتى تتم المحافظة على خصوصيات الجنس الخطابي والقوانين التي تحكمها أجناس الخطاب تتجاوز الحقل الأدبي إلى جميع أشكال التعبير اللغوي وغير اللغوي مثل «أخبار الحوادث، العمود الصحفي، فحص الطبيب، الاستنطاق البوليسي، المحاضرة الجامعية، تقرير نهاية الدراسة أو التكوين، الخ»[1].

ويحكم الأجناس الخطابية قانون التراتب Hiérarchie الذي يهدف إلى تنظيم علاقة بعض الأجناس بعضها ببعض مثل الأجناس الأدبية التي تتفرع عنها الأجناس القصصية، وهو ما يسهل عملية

---

[1] **Dominique Maingueneau, Les termes clés de l'analyse du discours, Seuil, Paris 1996.p.44.**

التحليل بإرجاع كل خطاب إلى قوانينه الخاصة والعامة وبالنسبة لمانغونو Maingueneau فإنه «يمكن النظر إلى الأجناس الخطابية على أنها قوالب أو أشكال تُصب فيها المضامين التي تتمتع بالاستقلالية عنها»[1] ويرتبط مفهوم جنس الخطاب بالطابع الطقوسي Rituel للكلام حيث يخضع كل جنس إلى مجموعة من القوانين والطقوس التي لا يمكن أن يحقق معنى بدونها وهو هنا شبيه بشروط تحقق فعل الكلام Acte de Langage كما نظّر له أستنويتضح ذلك على سبيل المثال في خطبة الجمعة كجنس خطابي متفرع عن الخطاب الديني حيث تخضع هذه الخطبة لشروط معينة يتعلق بعضها بالإطار المكاني، ويتعلق بعضها الآخر بالأسلوب، الخ.

ويقترح مانغونو شروطا يجب توفرها في مدونة خطابية ما حتى يمكن أن تصنف في إطار جنس محدد، أو بالأحرى المعايير التي يتأسس عليها جنس الخطاب، وهي كالتالي:

- سلطة المتكلم في مقابل سلطة المتلقي
- الإطار الزمكاني للتلفظ
- أدوات كلامية وإذاعية (ميكروفون، جريدة، الخ)
- الموضوعات التي يمكن أن يتضمنها
- النظام البنائي للخطاب (الطول أو القصر، الديباجة، الخاتمة، تنظيم الأجزاء، الخ)[2].

---

[1] **Ibid, p.44.**
[2] **Ibid,p.44.**

وتكمن أهمية جنس الخطاب في كونه يحيل إلى طبيعة الأفعـــال الإنشائية المتضمنة فيه «إننا لا نستطيع أن نفك شفرات ملفوظ ما ما لم نتعرف على الجنس الخطابي الذي ينتمي إليه»[1] أو كما قـــال باختين Bakhtine: «عندما نصغي إلى كلام الآخر، فإننـــا مـــن البداية، أو بالأحرى من خلال الكلمات الأولى، نستطيع أن نتعرف على جنس الخطاب وعلى حجمه التقريبي الذي يمكـــن أن يُقـــاس بالطول، كما نتعرف على بنيته التكوينية، بحيث يمكننا هـــذا مـــن تخمين النهاية التي سينتهي إليها ذلك الخطاب وهذا يعني أننا نعرف من البداية ذلك الخطاب في شكله الكامل»[2] وتحيل هذه الفكرة على طابع التماسك الذي يحكم الخطاب بفعل خضوعه لمنطق النوع أو الجنس.

ـــ التشكيلة الخطابية

يمكن اعتبار الفيلسوف الفرنسي ميشال فوفكو M.Foucault بمثابة المؤسس الأول لمفهوم التشكيلة الخطابية التي تعني بالنسبة لـــه «مجموع الملفوظات التي يمكن إخضاعها إلى نظام واحد من القواعد والقوانين التي تكرست عبر التاريخ»[3] والظاهر أن هـــدف فوكـــو الأساسي كان يتمثل في استحداث مفهوم بديل لجملـــة مفـــاهيم كانت متداولة مثل «النظرية» و«الإيديولوجيا» و«العلم»[4] وظـــل

---

[1] **Ibid, p.44.**
[2] **Ibid,p.45.**
[3] **Maingueneau, op.cit.,p.41-42.**
[4] **Ibid,p.42.**

هذا المفهوم بعيدا عن ميدان الدراسات اللغوية والنقدية إلى أن جاء بيشو Pecheux الذي وظفه لأول مرة في تحليل الخطاب.

وقد تضمن تصور بيشو لهذا المفهوم أبعادا سوسيولوجية لغوية بالدرجة الأولى من حيث أن التشكيلة الخطابية عنده جاءت على غرار مفهومه للتشكيلة الاجتماعية Formation sociale التي «تتضح معالمها من خلال العلاقة القائمة بين الطبقات الاجتماعية، وبحيث يترتب على ذلك وجود تموقع سياسي وإيديولوجي ليس من صنيع الأفراد ولكنه ينتظم في تشكيلات ترتبط فيما بينها بعلاقات تعارض أو تحالف أو سيطرة»[1] والخطاب، في هذه الحالة، هو الأثر المتضمن لهذه الظاهرة، يعبر عنها في صورها الأكثر تعتيما «فهذه التشكيلات الإيديولوجية تتضمن تشكيلة أو عدة تشكيلات خطابية مترابطة فيما بينها، تضبط قوانين الخطاب في إطار جنس معين (الخطبة عامة، الخطبة الدينية، رسالة هجائية Pamphlet، عرض، برنامج، الخ)، كل ذلك في إطار تموقع محدد في فترة محددة أو دقيقة»[2] وقد تأثر علم الدلالة بأفكار بيشو من منظور أن «مفردات اللغة تتغير من حيث المعنى عندما ننتقل من تشكيلة خطابية إلى أخرى»[3].

---

[1] Ibid.p.42.
[2] Ibid,p.42.
[3] Ibid,p.42.

وقد اتخذ هذا المفهوم أبعادا حيوية في تحليل الخطاب خاصة عند مانغونو الذي يقر بأن التشكيلة الخطابية لا يمكن تحديدها بدقة.«ففي فترة تاريخية دقيقة يمكننا الكلام عن تشكيلات خطابية خاصة بالشيوعية، وبتشكيلات خطابية خاصة بالإدارة، وبتشكيلات خطابية خاصة بعلم معين، وبتشكيلات خطابية خاصة بالملاّك وأخرى خاصة بالفلاحين، الخ»[1]غير أن استعمال هذا المفهوم في الآونة الأخيرة أصبح يرتكز بصفة خاصة على الجانب الإيديولوجي، بمعنى أن التموقعات الإيديولوجية التي ينطوي عليها الخطاب هي التي تمنح التشكيلة الخطابية هويتها المستقلة وأهميتها الخاصة في حقل تحليل الخطاب لأنها تكشف عن جوانب الصراع في مجتمع ما وفي فترة تاريخية محددة.

ويمكن فهم التشكيلة الخطابية من منظورين مختلفين، أحدهما يصب في اتجاه التعارض حيث يُنظر إلى كل تشكيلة خطابية كفضاء خطابي مستقل قابل لإقامة علاقات مع التشكيلات الخطابية الأخرى.أما الثاني فيصب في اتجاه التفاعل الخطابي Interdiscursive حيث تكتسب التشكيلة الخطابية هويتها وقيمتها من خلال تفاعلها مع التشكيلات الخطابية الأخرى[2]

---

[1] **Ibid,p.42.**

[2] ينظر: **Maingueneau, op.cit., p.42.**

هناك اختلاف بين جنس الخطاب والتشكيلة الخطابية برغم التشابه الظاهري بينهما وقد أشار مانغونو إلى أن جنس الخطاب قد يخضع أحيانا إلى تأثيرات التشكيلة الخطابية، بمعنى «أن التشكيلة الخطابية تستعمل جنس الخطاب بطريقة معينة تخدم أغراضها»[1] كما يبدو الاختلاف بينهما أيضا في أننا «نستطيع استنباط القواعد التي تحكم جنسا خطابيا ما (وليكن الخطبة الدينية Sermon على سبيل المثال) بمعزل عن التشكيلات الخطابية، كما يكننا معرفة الطريقة التي تبنتها هذه التشكيلة الخطابية أو تلك في استعمال جنس الخطاب كوسيلة لتمرير رسالتها (حيث أن جنسا خطابيا مثل الخطب الدينية لا يستعملها القسيس الأصولي بنفس الطريقة التي يستعملها القسيس التقدمي)»[2] وهناك مثال آخر أكثر دلالة على هذا التمثل الخاص الذي تقوم به التشكيلة الخطابية لجنس الخطاب وهو مثال أسلوب أرسطو في مؤلفاته الفلسفية «حيث لجأ إلى أسلوب الحوار بدلا من التعبير عن أفكاره في قالب الحكمة، وهو اختيار لا يمكن فصله عن المدرسة الفلسفية الأفلاطونية»[3]

كما أنه من الأهمية بمكان الإشارة إلى «الفرق الموجود بين التشكيلة الخطابية من حيث كونها نظاما من القواعد والقوانين وسطح الخطاب La surface discursive الذي يعني الملفوظات

---

[1] Ibid,p.45.
[2] Ibid,p.45.
[3] Ibid.,p.45.

المؤكدة التي تمتلكها التشكيلة الخطابية»[1] فبعض الملفوظات تتكرر في تشكيلات خطابية متنوعة مع أن ذلك لا يؤدي إلى طمس معالم التشكلية الخطابية الواحدة لأنها ليست مجرد ملفوظات بقدر ما هي شكل وبناء تُصب فيه المضامين المتنوعة.

ثانيا:في مفهوم شعر النقائض

يمثل شعر النقائض بحق ظاهرة فريدة في الأدب العربي، وهو ما يفسر اهتمام النقاد القدامى والمحدثين بها، ناهيك عن إقبال وإعجاب جمهور القراء بها على مر العصور والمؤكد أن دراسة هذه الظاهرة في إطار فن الهجاء سيؤدي حتما إلى التعتيم على الجزء الأكثر أهمية فيها، وهو ما حدث بالفعل في كثير من الدراسات النقدية قديما وحديثا.

ـ في مفهوم النقائض لغةً

كلمة «نقائض» مشتقة من الفعل الثلاثي «نقض» ومنه «النقض» حيث ورد في «لسان العرب» ما نصه: «النَّقْضُ إِفْسادُ ما أَبْرَمْتَ من عَقْدٍ أَو بِناء وفي الصحاح النَّقْضُ نَقْضُ البِناء والحَبْلِ والعَهْدِ غيره النقْضُ ضِدُّ الإِبْرام نقَضَه يَنْقُضُه نَقْضاً وانْتَقَضَ وتَناقَضَ والنَّقْضُ اسمُ البِناء المَنْقُوضِ»[2] ويقترب ابن منظور من المعنى الاصطلاحي عندما يتعرض للمناقضة في الكلام حيث يقول:

---

[1] Ibid,p.42

[2] ابن منظور، لسان العرب، ج7، الطبعة الأولى دار صادر – بيروت.ص 242.

«وأَنْقَضُ قوله وأَراد به المُراجَعةَ والمُرادَّةَ وناقضَه في الشيء مُناقَضةً ونِقاضاً خالَفَه»[1] ثم يشرح كلمة نقائض فيقول: «وكذلك المُناقَضةُ في الشِّعْر يَنْقُضُ الشاعرُ الآخرُ ما قاله الأَوّل والنَّقِيضةُ الاسم يجمع على النَّقائض ولذلك قالوا نَقائضُ جرير والفرزدق ونَقِيضُك الذي يُخالِفُك»[2].

ويشير الفيروز آبادي باقتضاب شديد إلى المعنى الذي تحمله كلمة «نقيضة»: «والنَّقيضةُ: الطَّريقُ في الجَبَلِ وأنْ يقول شاعِرٌ شِعْراً فَيَنْقُضَ عليه شاعِرٌ آخَرُ حتى يَجيءَ بغَيْرِ ما قال»[3].

أما الزبيدي فيشير إلى المعنى المجازي بقوله: «ومن المَجَاز: نَقِيضَةُ الشِّعْر وهو أَن يقولَ شاعرٌ شِعْراً فَيَنْقُضَ عَلَيْه شاعرٌ آخرُ حتَّى يجيءَ بغيرِ مَا قالَ قالَهُ اللَّيْثُ والاسم النَّقيضَةُ وفعلُهما المُناقَضَةُ وجمعُ النَّقيضَة: النَّقائضُ ولذلك قالوا: نَقَائضُ جَريرٍ والفَرَزْدَق»[4] ويقول في موضع آخر:«ومن المَجَاز: نَقِيضَةُ الشِّعْر وهو أَن يقولَ شاعرٌ شِعْراً فَيَنْقُضَ عَلَيْه شاعرٌ آخرُ حتَّى يجيءَ بغيرِ مَا قالَ قالَهُ اللَّيْثُ والاسم النَّقيضَةُ وفعلُهما المُناقَضَةُ وجمعُ النَّقيضَة: النَّقائضُ ولذلك

---

[1] لسان العرب، ج7، ص 242.

[2] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[3] جلال الدين محمد بن مكرم الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج1، ص846.

[4] الزبيدي، تاج العروس، مادة«نقض».

قالوا: نَقَائِضُ جَرِيرٍ والفَرَزْدَقِ ومن المَجَازِ: المُناقَضَةُ في القـــولِ: أَنْ يتكلَّمَ بما يتناقَضُ معناه أي يَتَخالَفُ»[1].

وهذه الإحالات المختلفة على معنى «الـــنقض» و«النقيـــضة» و«النقائض» تصب كلها في اتجاه مخالفة الرأي الآخر أو الرد عليـــه بما يخالف هو قد يعنى في بعض الأوجه تفنيد الرأي الآخر وردّه.

ـــ في مفهوم النقائض اصطلاحا

إننا لا نقصد بالمعنى الاصطلاحي لكلمـــة «نقـــائض» تلـــك الإحالات التي وردت في معاجم اللغة حول النقائض الـــشعرية لأن المعنى الذي ركز عليه أصحاب تلك المعاجم هو المعنى اللغوي ولهذا كان تعرضهم لمعنى كلمة «النقائض» على سبيل تتمة المعنى وشرحه أكثرفالمعنى الاصطلاحي الذي نقصده هو المصطلح النقـــدي الأدبي الذي يشير إلى «النقائض» كفن شـــعري متميـــز عـــن الفنـــون والأغراض الشعرية الأخرى لعدة عوامل منها:

ـــ أن شعر النقائض متعلق بفترة محددة هي العصر الأموي

ـــ أنه يتعلق بثلاثة شعراء بشكل رئيسي هم جرير والفـــرزدق والأخطل، ويضاف أحيانا بعض الشعراء منهم المغمـــور ومنـــهم المعروف المشهور مثل البعيث وغيره.

---

[1] المصدر نفسه.

ـــ أن الدافع إليه غير الدافع في شعر الهجاء عامـــة ســـوى في قصائد قليلة فقد توفرت أسباب وعوامل اجتماعية وسياسية جعلت منه ظاهرة شعرية عامة.

إن المفهوم الذي قدمه القدماء للنقائض لا يكاد يتجاوز المعنى اللغوي المتمثل في أن يجئ الشاعر بما يناقض ما قاله شـــاعر آخـــر، بمعنى مخالفته في القول شعراأما المحدثين فإنهم تفطنـــوا إلى الأبعـــاد الاجتماعية والفنية لهذا الشعر فنظروا إليه في خصوصيته وطرافتـــه وحاولوا تحديد ملامحه المضمونية والفنية.

وفي البداية نقف عند هذا التعريف الذي قدمه مجدي وهبة لهذا المصطلح والذي يعكس وجهة النظر السائدة حول هذا المـــصطلح حيث أورد ما يلي: «النقائض في الأدب العربي قصائد كان ينظمها الشعراء في الفخر بقبائلهم والحط من شأن القبائل المعادية لهم فقد كان الشاعر ينظم القصيدة في تمجيد قبيلته، ويُعرِّض فيها بخـــصومه من القبائل، فينبري للرد عليه شاعر من الخصوم بقصيدة على نفس الوزن والرَّوي»[1] والواضح أن هذا التناول الموســـوعي للمـــصطلح يعكس في الواقع التركيز على المعنى اللغوي الذي سبقت الإشـــارة إليه من جهة، ومن جهة ثانية النظر إلى هذه الظـــاهرة في إطارهـــا العام المتمثل فيما عُرِف عن العرب من منافرات ومفاخرات خاصة في العصر الجاهلي.

---

[1] مجدي وهبة، معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، بيروت 1994 ص340.

غير أن التركيز في الظاهرة سيؤدي حتما إلى التمييز بينها وبين الظواهر الأخرى المشابهة لها أو التي هي أعم منها أو فرع من فروعها فقط وقد أشار بعض الباحثين إلى الصبغة الخاصة لشعر النقائض في العصر الأموي فيقول د.عبد القادر القط في دراسة له حول الشعر الأموي:«وكان من نتائج انغماس الشعراء في تلك الخصومات والعصبيات القبلية التي كانت تغذيها الدولة حينذاك، أن ذاع فن شعري طريف هو فن النقائض وذلك أن يقول الشاعر قصيدة يهجو فيها شاعرا آخر ويسخر منه ومن قبيلته ويفخر بنفسه ورهطه وبما لهم من أمجاد في الجاهلية ومكانة في الإسلام، فيجيبه الشاعر بقصيدة ــ على وزنها وقافيتها في الأغلب ــ ناقضا كثيرا مما جاء به الشاعر الأول من معانٍ وصور، مضيفا إليها من جانبه مزيدا من الفخر والهجاء»[1] فالأمر إذن يتعلق بفن شعري ظهر في العصر الأموي، وهو بالضبط المعنى الذي يتبادر إلى الذهن عندما يأتي ذكر النقائض وأبرز دليل على ذلك أن الكتب التي ألفها القدماء عن نقائض جرير والفرزدق والأخطل مشهورة بـ «كتاب النقائض» ومنها ما يلي:

ــ «كتاب النقائض» لأبي عبيدة معمر بن المثنى واشتهر هذا الكتاب باسم النقائض واسمه الحقيقي (نقائض جرير والفرزدق)

---

[1] د.عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان 1987.ص 352.

وهو يضم القصائد الهجائية والفخرية وقد طبع الكتاب في ليدن سنة 1908 م في ثلاث مجلدات ضخمة ثم طبع ثانية في بيروت بطريقة التصوير وكما أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد.

ـ «كتاب النقائض» لسعدان بن المبارك الضرير النحوي أحد رواة العلم كوفي المذهب روى عن أبي عبيدة، وروى الكتاب عنه ابنه ابراهيم.

ـ «كتاب النقائض» للحسن بن الحسين بن عبيد الله المعروف بالسكري النحوي اللغوي الراوية الثقة المكثر.

ـ «كتاب النقائض» لأبي جعفر محمد بن حبيب[1].

ويشير إيليا حاوي في دراسته المفصلة عن الأخطل إلى الفرق الموجود بين الهجاء والنقائض حيث يقول:«وإذا كان الهجاء الجاهلي يعرض للفرد أو القبيلة في معان محدّدة، هي نقيض الفضائل الجاري عليها المدح، فإن الشعر الأموي كرّس ذلك النوع من الهجاء الذي يتواقع ويتثالب فيه شعراء محترفون، يشايع كل منهم

---

[1] هذه الكتب ذكرها القدماء في مؤلفاتهم وأضافوا إليها كتاب «نقائض جرير والأخطل» للشاعر المعروف أبي تمام الطائي صاحب «ديوان الحماسة»، ومن هذه المصادر:

ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ج10 / 330،

ـ نكت الهميان للصفدي، ص157

ـ خزانة الأدب ج1/ص 93.

ـ الوافي بالوفيات للفدي، 4جص/ 106.

قوما أو قبيلة، يؤلّبُ لها وعلى أعدائها، ويقدح فـيمن يـشايعها ويدافع عنها»[1].

ومما سبق يتضح أن المعنى الاصطلاحي للنقائض هو تلك القصائد التي ناقض بها جماعة من الشعراء الأمويون بعضهم بعضا، وخاصة منهم جرير والفرزدق والأخطل، في بيئة اجتماعية وسياسية كان لها دور كبير في تطور هذا الغرض على نحو يتجاوز الدوافع الشخصية لكل شاعر كما هو معروف في فن الهجاءوهذا لا ينفي، في الواقع، وجود تلك الدوافع الشخصية، فقد كانت وراء اشتعال نار الهجاء بين جرير والفرزدق [2] وبين الأخطل وجرير مثلما روى صاحب الأغاني: «قال أبو عبيدة حدثني عامر بن مالك المسمعي قال كان الذي هاج التهاجي بين جرير والأخطل أنه لما بلغ الأخطل تهاجي جرير والفرزدق قال لابنه مالك وهو أكبر ولده وبه كان يكنى: انحدر إلى العراق حتى تسمع منهما وتأتيني بخبرهما فانحدر مالك حتى لقيهما وسمع منهما ثم أتى أباه فقال له: كيف وجدتهما قال: وجدت جريرا يغرف من بحر ووجدت الفرزدق ينحت من صخر فقال الأخطل: الذي يغرف من بحر أشعرهما وقال يفضل جريرا على الفرزدق:[3]

إِنِّي قضيتُ قضاءً غيرَ ذي جَنَفٍ لَمّا سمعتُ ولّما جاءني الخَبَرُ

---

[1] إيليا حاوي، الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره، دار الثقافة، بيروت(ب.ت).ص224.

[2] ينظر ص 10 من هذا البحث.

[3] الأغاني، ج11، ص65.

أنّ الفرزدقَ قد شالت نَعَـامتُه وعضّه حيّةٌ من قومـــه ذَكَرُ

ثم يضيف صاحب الأغاني حادثة أخرى كانت بمثابة الشرارة التي أشعلت نار الهجاء بين الأخطل وجرير«قال أبو عبيدة ثم إن بشر بن مروان دخل الكوفة فقدم عليه الأخطل فبعث إليه محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة بألف درهم وكسوة وبغلة وخمر وقال له لا تعن علي شاعرنا واهج هذا الكلب الذي يهجو بني دارم فإنك قد قضيت على صاحبنا فقل أبياتا واقض لصاحبنا عليه فقال الأخطل:

(...)

تاجُ الملوك وفخـرُهم في دارمٍ أيّام يَرْبـــــوعٌ من الـــرُّعيان

وهي طويلة يقول فيها:

فاخسَأْ إليك كُلَيْبُ أنّ مُجَاشِعاً وأبا الفوارس نَهْشَلاً أَخَوَانِ

سبقوا أباك بكلّ أعْلَى تَلْعـــــة في المجد عند مَوَاقف الرُّكبان

قومٌ إذا خَطَرتْ عليك قُرومُهم ألقـــتْكَ بين كَلاَكِلٍ وجِرَانِ

وإذا وضعتَ أباك في ميزانهم رجَحوا وشال أبوك في الميزان

وقال جرير يرد حكومة الأخطل:[1]

لِمَنِ الدِّيـــــارُ ببُرْقـــةِ الرَّوْحَان إذ لا نَبِـــيعُ زمانَـــــــنَا بزمانِ

ولا يمكن أن نكتفي بهذه الأخبار التي هي في حد ذاتها متضاربة، بل أننا قد نستنبط منها بعض الفرضيات وهذا ما تقدم به إلينا

---

[1] الأغاني، ج11، ص66.

حاوي عندما قال: «والواقع أن هذا الخبر قد ورد بحيث أن الذي حكم على شعريهما كان الأخطل وليس ابنه وقد يكون الأخطل نقل قول ابنه، حين سأله بشر بن مروان رأيه في زميليه والمهم فيه أن الأخطل أقرّه، ووافق عليه، ومن ثم كان سببا في التهاجي بينه وبين جرير»[1].

ثالثا: التشكيلات الخطابية والأبعاد الإنشائية في شعر النقائض

إن تلك العوامل الاجتماعية والسياسية لظهور وتطور شعر النقائض في العصر الأموي هي بمثابة الطرف الغائب في هذا الشعر لكنها حاضرة من خلال التشكيلات الخطابية التي عبَرت عنها بالشكل الذي تتطلبه الثقافة السائدة وهو الشعر عموما وبعض فنونه خصوصا.

ـ التشكيلات الخطابية

يمكن حصر أهمها فيما يلي:

1. خطاب التيار الزبيري، نسبة إلى الزبير بن العوام، وكان الأمر يتعلق بابنه.

2. خطاب التيار الهاشمي، نسبة إلى الهاشميين من آل بيت النبي (ص).

3. خطاب التيار الأموي، نسبة إلى الأسرة الأموية التي كانت على سدة الحكم.

---

[1] إيليا حاوي، المصدر السابق، ص51.

4.خطاب التيار الخارجي (نسبة إلى الخوارج وهم جماعة من أنصار علي بن أبي طالب خرجوا عن طاعته بعد حادثة صفين بسبب رفضهم التحكيم).

5.خطاب الشعراء المحترفين (الذين لجأوا إلى مدح الأمويين برغم انتماءاتهم السياسية والاجتماعية التي كانت تتعارض مع هذا الموقف الذي اتخذوه بغرض التكسب).

فإذا نحن تأملنا هذه التشكيلات الخطابية، التي لا تشكل سوى الجزء البارز في شعر النقائض وفي الحياة الاجتماعية والسياسية في العصر الأموي، وجدناها تستند إلى مرجعيات مختلفة هي:

ـــ يستند التيار الزبيري إلى نزعة إقليمية (قيام الدولة الزبيرية في الحجاز).

ـــ يستند التيار الهاشمي إلى نزعة دينية (انتقال الانتساب إلى آل البيت إلى رمز ديني مقدس عند المسلمين).

ـــ يستند التيار الأموي إلى نزعة قبلية (قيام الدولة الأموية على العصبية وتشييدها لنظام الحكم الوراثي ونبذها للفئات الاجتماعية الأخرى خاصة منها الأعاجم أو الموالي).

ـــ يستند تيار الخوارج إلى نزعة سياسية (لم تكن حركة الخوارج قبيلية أو جهوية أو دينية بل كانت حركة سياسية بالدرجة الأولى هدفها الوصول إلى الحكم وتجسيد آرائها السياسية التي عبروا عنها لأول مرة بعد رفضهم التحكيم في معركة صفين).

ـــ يستند خطاب الشعراء المحترفين إلى وضعية فئـــة اجتماعيـــة تمتلك فنون التعبير والمعرفة لكن وجدت نفسها بدون مصدر للعيش فلجأت إلى احتراف الـــشعر والتـــضحية بانتماءاتهـــا الـــسياسية والاجتماعية في سبيل تحقيق ذلك ويمكن النظر إلى هؤلاء الـــشعراء على أنهم يمثلون ما يُعرف في العصر الحديث بالأنتلجنسيا أو فئـــة المثقفين.

غير أن تضمين هذه الخلفيات قد تم على أســـاس حـــضورها القوي، بمعنى أن طبيعة الصراع بين هذه التشكيلات الخطابيـــة لم تكن تشكل الدافع الأول للهجاء، بل كان الدافع الظاهري شخصيا في معظم الأحيان فالشاعر تبنى هذه التشكيلات الخطابية لما كان لها من حضور قوي في الحياة السياسية والاجتماعية في تلك الفترة وفي تلك الرقعة (الحجاز خصوصا)، لأنها تعبر عـــن عناصـــر البنيـــة الاجتماعية والسياسية التي تتجاوزه كفرد.

ـــ جنس الخطاب

لقد استثمرت تلك التشكيلات الخطابية أجناسا خطابية متعددة، ضمن منظومة أشكال التعبير المعروفة في ذلك العصر، وقـــد جـــاء اختيارها على أساس ما تتمتع به من سلطة على وجـــدان النـــاس ويمكن حصر هذه الأجناس على نحو تراتبي كالآتي:

ـــ الشعر:

1. فن الهجاء

2.فن المدح
3.فن الفخر
4.فن الوصف (الوصف الساخر للخصم)
5.فن المنافرات

أما المضامين الأساسية التي تم توظيفهـا في هـذه الأشـكال التعبيرية فهي كالآتي:

ـ القيم الجاهلية مثل الفخر بالنسب والانتصار في الحـروب والكرم والمروءة.

ـ القيم والمعاني الإسلامية التي أصبحت عقيدة راسخة عنـد كل مسلم.

ـ الأخبار والحوادث الفردية أو الجماعية التي تخدم الموضوع مثل أيام العرب في الجاهلية والإسلام وبعض النوادر والطرائف التي قد يستغلها الشاعر للسخرية من المهجو.

ـ السجال السياسي في إطار الصراع الذي كان قائما حيث يلجأ الشاعر إلى تعيير خصمه بانتمائه إلى تيار معين أو تقاعسه عن مناصرة تيار كان يحظى بتعاطف طائفة عريضة من المجتمـع وقـد تطور هذا السجال والجدل في العصر الأموي كنتيجة للـصراعات السياسية والعقائدية التي ظهرت منذ مقتل آخر الخلفاء الراشـدين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ـــ الكلام المقذع والشتم الذي يعبر عن جزء مـــن مـــضمون الخطاب الاجتماعي في ذلك العصر والذي يمكن إدراجه ضمن مـــا أسماه أستن Austin أفعال الكلام السلوكية Comportatifs والتي تعكس سلوك الفرد في مواقف معينة.

غير أن هذه المضامين ليست «أفعالا إنشائية أوليـــة primaire Actes illocutoires بقدر ما هي أفعال كـــلام ثانويـــة Acte illocutoires secondaire حيث تكون الأولى هي المقصودة في الكلام في حين أن الثانية، غير المقصودة، هي الظاهرية»[1] كمـــا أن معظم الأفعال الإنشائية في شعر النقائض هي ذات طبيعة تأثيريـــة Perlocutoires تحتمل أكثر من معنىً وهي تستهدف أكثـــر مـــن متلق واحد «فالاستفهام مثلا قد يكون هدفه تملق مخاطـــب أول، إظهار التواضع لمخاطب ثاني، أو مضايقة مخاطب ثالث »[2].ويمكن توضيح نموذج من تلك المضامين في المخطط التالي:

قول الفرزدق:

إنّ الّذي سَـــمَكَ السَـــمـــاءَ بَنى لَنا ... بَيتاً دَعائِـــمُهُ أَعَـــزُّ وَأَطـــوَلُ

بَيتاً بَنـــاهُ لَـــنا المَليـــكُ وَما بَـــنى ... حَكَـــمُ السَـــماءُ فَإِنَّهُ لا يُنقَلُ

بَيتاً زُرارَةُ مُحـــتَـــسِـــبٍ بِفِنـــــائِهِ ... وَمُجاشِعٌ وَأَبو الفَوارِسِ نَهشَلُ

---

[1] John Searl, Sens et expression, Les Editions de Minuit, Paris 1982p.48.

[2] Maingueneau ,op.cit., p.10

يَلجونَ بَيتَ مُجاشِعٍ وَإِذا احتَبوا ... بَرَزوا كَأَنَّهُمُ الجِبالُ المُثَّلُ
مِن عِزِّهِم جَحَرَت كُلَيبٌ بَيتَها ... زَرباً كَأَنَّهُمُ لَدَيهِ القُمَّلُ
ضَرَبَت عَلَيكَ العَنكَبوتَ بِنَسجِها ... وَقَضى عَلَيكَ بِهِ الكِتابُ المُنزَلُ

ففي البيت الأول والثاني والأخير مضمون ديني إسلامي يتمثل في تأكيد القدرة الإلهية التي لا تحوم حولها الشكوك حيث ورد ذلك بأسلوب مباشر في البيتين الأولين وبأسلوب غير مباشر في البيت الأخير يمكن تفسير الأبعاد الإنشائية لذلك على المنوال التالي:

الله هو الذي بنى عزنا ←
- أنا أؤمن بالله وبقضائه وقدره (فخر بالدين)
- لاتستطيع أن تتحدى هذه القدرة (رمي بالعجز)
- أنا من أسرة عريقة قوية (فخر قبلي)

وفي البيت الخامس شتم وكلام مقذع وظفه الشاعر في مغازلة ظاهرة لسلوك اجتماعي سائد حيث يمكن تفسير الأبعاد الإنشائية لذلك على المنوال التالي:

أنتم مثل القمل مقارنة بذلك البيت العظيم ←
- شتم الخصم
- تأكيد الفخر
- مغازلة سلوك اجتماعي سائد

فيرد عليه جرير بنفس المضامين في قصيدته التي مطلعها:

إِنَّ الَّذي سَمَكَ السَـــماءَ بَنى لَنا بَيتاً عَلاكَ فَما لَهُ مِن مَنـــقَلِ

مما يدل على القوة التأثيرية لهذه المضامين في المجتمع الأموي وهنـــا مثال آخر يعكس وضعية الصراع التي كانت تميز تلك التشكيلات الخطابية في شعر النقائض.

يقول جرير من قصيدة في هجاء الفرزدق مطلعها:

لَمَنِ الديارُ كَأَنَّها لَم تُحـــلَلِ بَينَ الكِناسِ وَبَينَ طَلحِ الأَعزَلِ[1]

حيث يقول في هجائه:

قُتِلَ الزُبَيرُ وَأَنتَ عاقِدُ حُبوَةٍ قُبحاً لِحُبوَتِكَ الَّتي لَـــم تُحلَلِ

لا تَذكُروا حُلَلَ المُلوكِ فَإِنَّكُم بَعدَ الزُبَيرِ كَحائِضٍ لَـــم تُغسَلِ

أَبَنَي شِعرَةَ لِم تَسُدُّ طَريقَـــنا بِالأَعمَيَينِ وَلا قُفَـــــيرَةَ فَازحَلِ

وَلَقد تَبَيَّنَ في وُجوهِ مُجاشِعٍ لُؤمٌ يَثورُ ضَـــبابُهُ لا يَنجَلي

قال أبو عبيدة في شرح النقائض: «ادعى جرير أن الزبير كان جارا للنِّعر بن زَمَّام المجاشعي و لم يكن أجاره»[2]ففي هذه الأبيات يتـــهم جرير الفرزدق وقومه بالتقاعس عن مؤازرة الزبير الـــذي كانـــت الحجاز كلها، وخاصة مكة المشرفة، تبجله لأنه كان صحابيا جليلا

---

[1] ديوان جرير، تحقيق نعمان أمين طه، دار المعارف، القاهرة 1971.ص 808.

[2] شرح نقائض جرير والفرزدق، رواية عبد الله اليزيدي عن أبي سعيد السكري عن ابن حبيـــب عن ابن عبيدة، تحقيق د.محمد إبراهيم حور ود.وليد محمود خـــالص، ج2، منـــشورات المجمـــع الثقافي، دبي 1998.ص 396.

يهابه المسلمون ويبجلونه لما أبلاه في حياة النبي (ص) من حسن البلاء والواقع أن هذه التهمة ظلت ملازمة للفرزدق وقومه، خاصة في منطق جرير، لأن مجموعة من الصدف شاءت أن تتظافر لتلقي الشك حول طبيعة العلاقة التي كانت تربط الفرزدق بابن الزبير.

فقد روت بعض المصادر أن الظروف جعلت جريراً يقف في صفوف قيس، وتصادف أن عشيرته أسرعت بالبيعة لابن الزبير، وتصادف أن قتل مجاشعي الزبير بن العوام، وتصادف أن لجأت النوار زوج الفرزدق حين غاضبته إلى الزبير فجعل الفرزدق يهجو جريراًغير أن جريرا اتخذ من تلك الحوادث ذريعة ليلبس الفرزدق تهمة اللؤم والخيانة، خيانة الزبير، مستغلا ما كانت تحظى به هذه الشخصية من مكانة في قلوب المسلمين وكان جرير قد مدح ابن الزبير بعدة قصائد لكن التكسب جعله يمدح الأمويين ألذ أعدائه غير أن جريرا ظل وفيا للزبير ولم يتمرد عليه وعلى أفكاره السياسية.

ويمكن تحليل الفعل الإنشائي في هذه الأبيات على المنوال التالي:

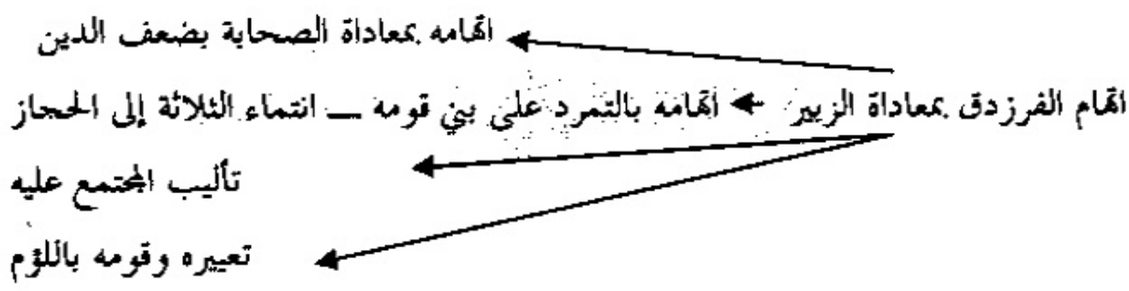

وإذا تأملنا التشكيلات الخطابية الأخرى مثل خطاب التيار الهاشمي فإننا نجده قويا في شعر الفرزدق مقارنة بشعر جرير، في حين كان تيار الزبير أقوى في شعر جريروالمعروف أن التيارين كانا مسيطرين على الساحة السياسية في العصر الأموي خاصة لدى الطبقات الشعبية والفقيرة، وأن التيار الأموي كان مفروضا بالقوة في أغلب الأحيان

أما التيار الأموي فنجده حاضر بقوة في شعر الأخطل الذي اتخذ من هجائه جريرا وسيلة لمغازلة الأمويين على خلفية ولاء قبيلة جرير لألد أعداء الأمويين أي ابن الزبير بن العوام.

ومن النماذج المجسدة لذلك الهجاء قول الأخطل في قصيدته المشهورة التي مطلعها:

خَفَّ القَطينُ فَراحوا مِنكَ أَو بَكَروا وَأَزعَجَتهُم نَوىً في صَرفِها غِيَرُ

حيث يقول في هجاء قيس وكليب قبيلة جرير:

وَقَيسَ عَيلانَ حَتّى أَقبَلوا رَقَصاً فَبايَعوكَ جِهاراً بَعدَ ما كَفَروا
أَمّا كُلَيبُ بنُ يَربوعٍ فَلَيسَ لَهُم عِندَ المَكارِمِ لا وِردٌ وَلا صَدَرُ
مُخَلَّفونَ وَيَقضي الناسُ أَمرَهُمُ وَهُم بِغَيبٍ وَفي عَمياءَ ما شَعَروا

حيث يمكن تحليل الأبعاد الإنشائية في هذه الأبيات على النحو التالي:

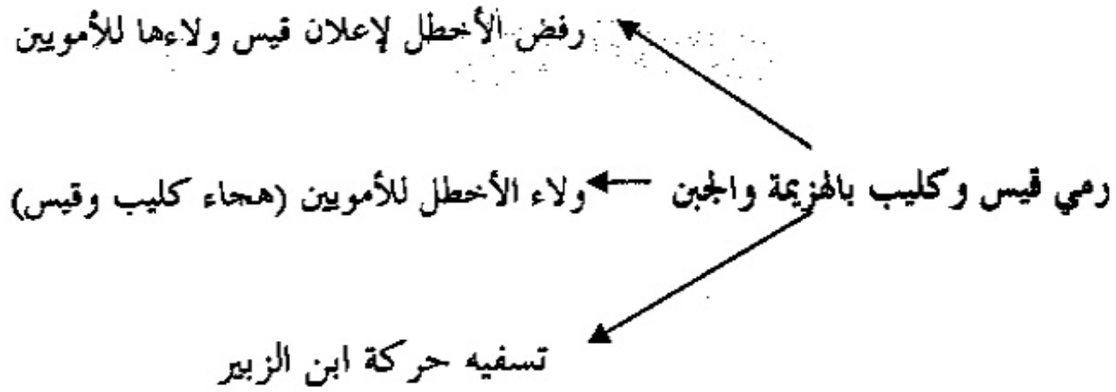

فالمضمون الإنشائي الأول يتصل بموقف الشاعر وقبيلته نتيجة العداوة التي كانت قائمة بين قيس وتغلب، وعندما تغير موقف قيس من الأمويين وجاؤا طائعين إلى الخليفة عبد الملك، أحس الأخطل بانزعاج من هذا التقارب لأنه يشكل خطرا على علاقته بالأمويين وربما كان الباعث على هجاء كليب هنا هو كون جرير حليفا لقيس، كما مر ذكر ذلك وقد اتخذ الأخطل ذلك ذريعة للنيل من جرير ومن قيس على حد سواء على اعتبار أن الطرفين كانتا متحالفتين في مناصرة ابن الزبير وتنطوي هذه الأبيات أيضا على مضمون إنشائي يتحدد في شكل مغازلة للسطلة الأموية بهجائه

لأنصار ابن الزبير، الذي هو، في نهاية الأمر، تسفيه لحركة ابن الزبير السياسية

أما فيما يخص التشكيلة الخطابية الخاصة بتيار الخوارج فالظاهر أنها كانت تشكيلة مُهيمنٌ عليها Dominée نظرا لتراجع نفوذها السياسي والاجتماعي حيث :

ـــ كان معظم المسلمين قد حسموا أمـــرهم للتيـــار الهـــاشمي والزبيري.

ـــ أن الدولة الأموية اضطهدت الخوارج وحاربتهم أينما كانوا فلم يعد لهم نفوذ سياسي.

وهذا ما يفسر عزلة الخطاب الشعري للخوارج وانطوائه على نفسه كما يدل على ذلك شعر بعض من يمثل هذا التيـــار أمثـــال الطرماح بن حكيم وعمران بن حطان، إضافة إلى كـــون هـــؤلاء الشعراء هم من القلة بحيث يمكن أن يمارس شعرهم تأثيرا فعالا على المجتمع.

وفي الأخير نستنتج أن التشكيلات الخطابية في الشعر الأمـــوي، وفي شعر النقائض على الخصوص، كانت تعـــبر عـــن التيـــارات السياسية والاجتماعية السائدة وعن بعض الفئات التي اتخذت مـــن الشعر أداة للتعبير عن نفسها في بيئة ذات خصوصية ثقافيـــة وقـــد

تفاعلت هذه التشكيلات فيما بينها متخذة من فن الشعر جنسها الخطابي المفضل وفيما يخص المضامين الإنشائية فإنها جاءت لتكشف الأبعاد الحقيقة لشعر النقائض وهو التعبير عن الحالة الاجتماعية والسياسية والثقافية في شبه الجزيرة العربية في عصر الدولة الأموية ويمكن تجسيد مسار تلك العلاقات في المخطط التالي:

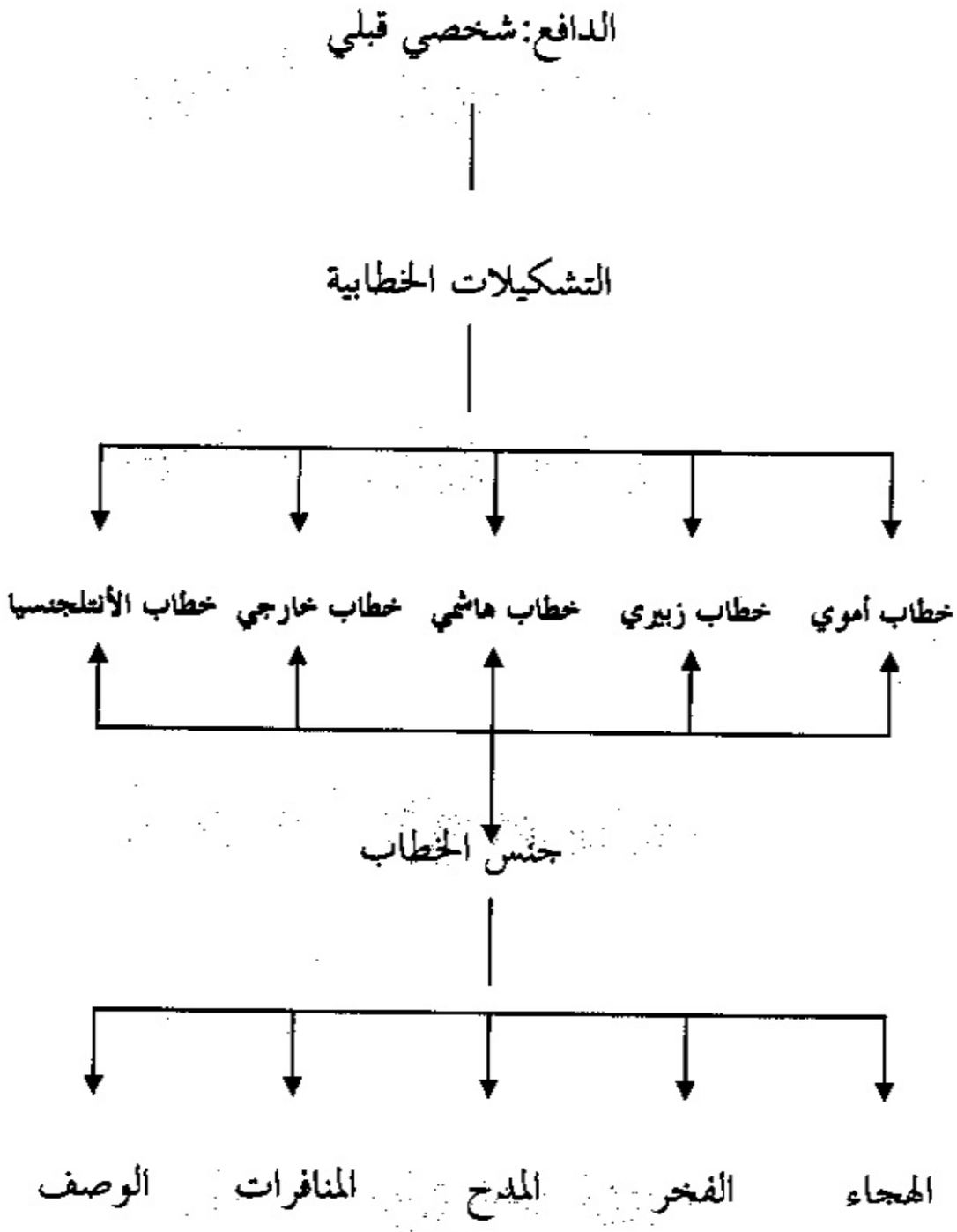

أما فيما يخص طبيعة الصراع وعلاقات الهيمنة والخضوع بين هذه التشكيلات الخطابية فيمكن تصورها على النحو التالي:

التشكيلة الخطابية	السلطة Statut	جنس الخطاب المختار	الأبعاد الإنشائية	الشاعر
الخطاب الزبيري	مهيمن	الشعر	الجدل ـــ القيم الإسلامية ـــ النزعة الإقليمية	جرير الفرزدق
الخطاب الهاشمي	مهيمن	الشعر	القيم الإسلامية	الفرزدق جرير
الخطاب الأموي	مهيمن	الشعر	قبلي سياسي	الأخطل جرير الفرزدق
الخطاب الخارجي	مُهيمَن عليه	الشعر	الجدل السياسي	غائب
خطاب الأنتلجنسيا	وسطي	الشعر	ـــ ذاتي :إبراز القدرات الشعرية ـــ قبلي: عودة القبيلة كوحدة سياسية فاعلة	جميع شعراء النقائض

إن ما يمكن أن يُقال كاستنتاج عام في هذا التحليل لشعر النقائض أن التشكيلات الخطابية في العصر الأموي كانت حاضرة فيه بقوة، باستثناء خطاب الخوارج نتيجة هيمنة التشكيلات الأخرى وذلك لعدة أسباب أهمها:

ـــ عدم قيامه على العصبية القبلية.

ـــ القدرات المحدودة للأنتلجنسيا (الشعراء والخطباء) الذين مثلوه.

ـــ قيامه كتيار مضاد لجميع التيارات الأخرى مما أفقده القدرة على التفاعل (ينظر إشارتنا إلى أهمية هذا التفاعل في المتن النظري لهذا البحث) وبالتالي إلى عزله عن الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية.

أما التشكيلة الخطابية الخاصة بالأنتلجنسيا فنستطيع القول أن عودة العصبية القبلية في العصر الأموي منحت فرصة لشعراء النقائض لإثبات موقفهم الذي ظهر، في بعض الأحيان، مستقلا عن تأثيرات تيار السلطة (التيار الاموي) والتيارات المهيمنة الأخرى.فجرير، الذي اشتهر بمدحه للأمويين، لم يتوان عن مدح ألد أعدائهم أي ابن الزبير بن العوام، كما أن الفرزدق الذي اشتهر هو الآخر بمدح الأمويين لم يتوان أيضا عن إظهار الولاء والإعجاب للهاشميين، ألد أعداء الأمويين أيضا، كما أن الأخطل، الذي اشتهر

أيضا بمدحه الأمويين لم يتوان هو الآخر عن إظهار اعتزازه بنصرانيته واجترائه على شرب الخمر في محضر الخلفاء الأمويين.

وفي شعر النقائض، تظافرت تلك التشكيلات الخطابية المتصارعة لتصنع خطابا يتضمن عناصر التعارض Contrastive والتفاعل أو التداخل Interdiscursive [1] حيث يمكن:

ـــ إرجاع الأول إلى محاولة كل تشكيلة خطابية فرض نفسها على التشكيلات الأخرى.

ـــ إرجاع الثاني إلى حالة التوازن التي فُرِضت على هذه التشكيلات لظروف تاريخية معروفة.

وهذا ما يفسر ذلك التعايش الغريب الذي جسده كل شاعر من هؤلاء الثلاثة ـــ جرير والفرزدق والأخطل ـــ بخضوعهم للتشكيلات المهيمنة ومحاولتهم فرض تشكيلة خاصة بهم من خلال استغلال عودة العصبية القبلية التي أضعفت السلطة المركزية للأمويين ومنحت فسحة من الحرية لكل شاعر يعبر من خلالها عن توجهاته الخاصة.

---

[1] ينظر: Maingueneau,op.cit., p.42